حوض البحر.. أمنيات وآمال

رحاب أبو القمبز

«إنسان بلا هدف كسفينة بلا دفة، كلاهما سوف ينتهي به الأمر على الصخور».

بدأ المشوار بحلم جميل ونحن في أريحا، عندما حدثتنا سمر قرّش عن عنوان المهرجان، بدأت التفكير في البحر لعمل المهرجان على شاطئ بحرنا، وأخذنا نخطط بشكل عشوائي للموضوع، وعندما أعادت علا بدوي عرض الموضوع مرة أخرى، بدأنا بالتخطيط كيف ننفذ ما رسمناه رغم كل ما حولنا من الصعاب والتحديات.

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

فكرت قليلاً وتأملت في ما سيحدث في ذلك اليوم، وكان حوارى مع طالباتي بتأملاتهن عن البحر، فأخبرنني بحلمهنّ الجميل وهن أطفال صغيرات، أن تغوص كل منهن في أعماق البحر، وتخرج كل منهن بأمل جديد ونافذة للحياة. منهن من تمنّت أن تحمل أكبر صدَفَة، وأخرى تجمع اللآلئ. وإحداهن تمنت أن تركب سفينة تحط على شط آمن دون حروب، أو مدينة لا ينقطع عنها الضوء ليلاً، ومنهن من تمنت أن تأكل سمكة كبيرة جداً مع والديها في عرض البحر، ومنهن من تمنت أن ترى الحوت ... وأمنيات عديدة لم تأتِ بخاطري الآن. ومن ردودهن عن أمنياتهن حول البحر حين طرحت عليهن: لو طلب منكن المشاركة في مهرجان نوار نيسان الخاص بالبحر، ما هو الموضوع الذي سنشارك فيه؟ فتعالت الأصوات: نقوم بعمل حوض البحر. أعجبت بالفكرة وبدأنا شرعن بالتفكير بمقاسات الحوض الذي سنصنع منه بحراً، وقمن بجمع الأصداف والرمال، وبحثن عن الطحالب على شاطئ البحر، فلم يجدن للأسف. كانت الطالبات تنتظر قدوم هذا اليوم الذي سيقام فيه المهرجان بفارغ الصبر.

جاء اليوم الذي ننتظر لتحقيق الهدف الذي حلمت به طالباتي، ومن شدة حرصنا على موعد المهرجان، كنا أول من وصل، وقمنا برسم الكائنات البحرية الأخرى على ورق المطاط، وجاء الجمهور قبل الموعد المحدد للمهرجان، وبدأنا أنا وطالباتي بالعمل. ولكن تفاجأت بما قامت به طالباتي من إبداع، ما جعلني أقفت مذهولة أمامهن، لأنني لم أتفق معهن على طبيعة النقاش بينهن وبين المشاركات، ولكني كنت أتمني أن يسجل

أحدكم مناقشتهن كأنهن معلمات علوم، وبخاصة الطالبة آلاء زقوت التي تميزت بمناقشتها الرائعة، حيث كانت تسأل الطالبات المشاركات بداية: ماذا يعيش في البحر؟ ماذا تتنفس الكائنات البحرية؟ من أين تحصل على الأوكسجين اللازم لحياتها؟ ما شكل الطحالب التي تتغذي عليها الأسماك؟ ما هي أنوع الأسماك في البحر؟ هل كلها لها عمود فقري؟ لماذا للسمك ذيل وليس كالإنسان له أرجل؟ ما شكل جسمها؟ ما فائدة خياشيم الأسماك؟ استرسلت في الأسئلة الخاصة بالبحر، ولم تمل للتوصل مع الطالبات عن البيئة البحرية وطبيعتها. وسرعان ما بدأنا بتقسيم العمل بيننا، فقامت إحداهن بإرشاد المشاركين لإحضار الماء، والأخرى للمساعدة في تعبئة الأصداف داخل الحوض. رسمت الطالبات بمساعدة طالباتي آية وآلاء ولانا، لصغر سن المشاركات، بداية، الأسماك والطحالب وكائنات أخرى.

كان أجمل ما في الموضوع أن الطالبات كن من شدة حبهن لعمل هذا الحوض، أضطر إلى سحب المقصات والورق منهن. كان إلحاح طلبة آخرين على المشاركة دافعاً لي بأن أكمل نشاطي في اليوم التالي، مع أنه كان في المخطط أن ينفذ نشاطي لمدة يوم واحد، وهو اليوم الأول. وعلى الرغم من طول الساعات المحددة لوقت المهرجان، فإنني لم أشعر بالتعب أو الكلل والملل، وذلك بسبب سعادة من حولي من المشاركين، لدرجة أن طفلة لم تكمل الثالثة من العمر رأيتها تبكي لوالدتها راغبة في المشاركة في عمل حوض البحر. وما أدهشني أن أمهات الأطفال كن يشاركن أطفالهن، ويرسمن لهم، ويحاولن أن يقنعنني بأنهن من رسم، ويرمين أسماكهن وطحالبهن في البحر، ومنهن من يركب فوق الطاولة كي يعبئ الرمل والماء، وأتأمل ضحكات تتعالى في أذني كأنها همس البحر عندما تكونين سعيدة بكل ما حولك، وهذا، أيضاً، بدعم من علا بدوي، فهي توزع ابتسامات الرضا على الجميع، وتلتقط الصور مع الأطفال لدعمهم في المشاركة.

أيضاً كم كانت فرحتي بمشاركة معلمة الفن زميلتي فاطمة أبو عودة في المهرجان، فهي لم تعلم إلا قبل وقت المهرجان بقليل، ولكن صممت على أن تشارك بلمساتها الفنية، ورسمت هي والطالبات لوحات جدارية، ورسمنا على الصخور، وعرضنا الصخور على الأرض بعد الانتهاء من العمل، وكان الأطفال المارون من أمامها يصممون على أن يأخذوا هذه الحجارة تذكاراً، لأنها تشد انتباههم، فكانت أيام فرحة، شعرت أنى في لحظات نادراً ما تتكرر، خرجنا من الجو التعليمي التقليدي، ليبرز كل منا ما هو كامن في داخلة، كلنا حماس لأنشطة قادمة. قد خسر من لم يحظَ بفرصة المشاركة في يوم الفرح وليس نوار نيسان. طالباتي تحدثن وقتاً طويلاً عن هذا اليوم، وكانت الطالبات اللواتي لم يحظين بالمشاركة يلمنني على ذلك، والرد كان من قبلي: يا ليتني أستطيع أن يشارك الجميع. في المرة القادمة سنكون بالتأكيد أفضل، ونخطط وننفذ بشكل أفضل.

مدرسة بنات الشاطئ الإعدادية «ج»

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.